

«قل الحقيقة كلها»، ولكن قلبها بطريقة مائلة، غير مباشرة»، هذا ما قالته الشاعرة الاميركية اميلي ديكنسون Emily Dickenson، وهو يشير العجب للوهلة الاولى .

الفن ليس هو الحياة

«لاشترتوز دوبارم» و «الاحمر والاسود» اعظم منه في قصته «حياة هنري بولار» التي تنقصها الانارة المائلة .

وإن نظرية «قل الحقيقة كلها»، ولكن قلبها بطريقة مائلة غير

بمباشرة» تذهب الى ابعد من ذلك وتشمل فنوناً اخرى . فحين يستطيع الفنان ان يسجل فكرة أو حدثاً من غير ان يمثلها بطريقة مباشرة، يحصل غالباً على نتيجة طيبة . من اجل ذلك يعمد المخرجون السينمائيون الى استبدال الواقعة الواضحة بالاجزاء غير المباشر كلها وجدوا الى ذلك سبيلاً . فان انطلاق القطار الذي يحمل المرأة الحبيبة، مثلاً هو اشد تأثيراً، إذا ادركنا فرار الحافلات المضيئة بواسطة ما تعكسه من انوار على المحطة، بما لو رأينا القطار نفسه يجري على سكة . وإن شبح اللص على الجدار اشد رهبة من وجهه الواضح .

انذ اكتشف الشعراء منذ وقت طوييل ان الرمز، او استبدال الشيء المعنى بالاشارة، هو ينبوع جمال . وكذلك يصبح المخرج السينمائي اليوم رمزياً . فقد اخرجت اخيراً عدة افلام عن شاتوبريان وبلازاك لا يظهر فيها هذان البطلان ابدأ على الشاشة، ومع ذلك فان هذه الافلام تظهرهما لنا اشد حياة بما لو قمصهما ممثل على الشاشة . ولماذا، ترى، تؤثر فينا الاشارة؟ إن لذلك سببين : إننا في الواقع نتصل بالكائنات والاشياء بالاشارات . وإن الشيء المحسوس (هذه الشمعة التي تنطفئ) يؤثر فينا اشد بما تؤثر فينا فكرة الموت المجردة . ثم إن المشاهد او القاري يجدان لذة كبيرة ودقيقة في ان يجزرا بنفسيهما اوبفهما . وإن من الأخطاء الكبرى التي يقع فيها مؤلفو الروايات (السوداء) او الافلام السوداء أنهم يريدون ان يظهروا لنا، بواقعية مزعجة وساذجة، اشبع المناظر والأحداث التي تتمخض عنها الحياة . والحق ان النفور المادي ليس شعوراً جمالياً، إن الفن لا يمكن ان يكون هو الحياة، وانما هو تمثيل للحياة . « إن على الفن ان يعطي المشاهد ما تمنعه الحياة عن الانسان، انحاء التأمل والعمل . » هذا ما يقوله سانتاينايا Santayana . ولكي يظل هذا التأمل صافياً، فينبغي ان يكون التمثيل غير مباشر .

قل الحقيقة كلها، ولكن قلبها بطريقة مائلة . إن الحشونة والنظافة، في الفن كما في السياسة، اعتراف بالعجز .

« تعريب الآداب »

ولكننا ندرکه تماماً إذ نفكر بروائع الآثار . أجل، ان على الفنان ان يقول الحقيقة كلها عن الانسان، إبتداءً منه هو نفسه، لانه إنما يعرف الآخرين عبر ذاته، ولكن اذا حاول ان يقول ذلك بطريقة مباشرة أكثر مما ينبغي، فان حركة انعكاسية تشله . تأمل حكمة مارسيل بروست : فقد شاء ان يتحدث بكل صراحة عن المثلية الجنسية، فحاذر ان يجعل من البطل، الذي يمثل المؤلف في نظر القاري، شخصاً شاذاً جنسياً . إن « أنا » الرواية تتأمل هذا الدرام من الخارج، ومن هنا تتجلى الحقيقة الرائعة لاشخاص شارلوس وسانلو . والحق ان توسع الفنان ان يقول كل شيء، اذا قننعه . وقد كان فلوبيير يقول « ان مدام بوفاري هي انا »، واذا امتنع بروست عن ان يقول « ان مدموازيل فانستوي هي انا » فان عنف اللهجة ينم عن هذه الحقيقة . على ان عدداً من الروايات الرائعة قد كتبت بضمير المتكلم « كادولف » و « دومينيك » و « سوناتة كروتزر » . وان بعض المذكرات (كمدكرات ريتزوسان سيمون) هي آثار فنية . هذا صحيح، ولكن ينبغي انما ان نورد هنا بعض الملاحظات المفيدة . ففي هذه الروايات اهتم المؤلف (بروست مثلاً) في ان ينفصل عن البطل الرئيسي : « ان » انا » هذا الكتاب ليست انا . وليست « سوناتة كروتزر » في الظاهر اعترافاً من ليون نيقولايفيتش تولستوي، ولكنها حكاية رواها رجل تم لقاءه في قطار . فان « الانا » هنا ذات زهركين .

والطريقة نفسها قد استعملت في « دومينيك » . واما رواية « أدولف » الرائعة، فان حشمة الراوي محفوظة فيها بسبب من رصانة اللهجة . وهذه الغراميات جميعها قد رويت بدون اي مزيج شهواني . والحق ان مؤلفاً مثل كازانوف يتبسّط ملتدأ بوصف الحنايا الجسمانية، يضايقنا غالباً . انه يسلمنا، ويقاقتنا، ولكنه لا ينال منا ابدأ الاحترام والحب الذين لا يستطيع كاتب بدونها ان يصبح كاتباً محبوباً وغودجياً في وقت واحد . وان ستاندال يظل في قصتيه

* راجع العدد ١٣٨٦ من مجلة « Les Nouvelles Littéraires »